هل نشهد حرباً تعيد رسم خارطة المنطقة؟

استراتيجية الذهاب بالحروب نحو المسافات الطويلة والدخول في نزيف الصراعات

منذ الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918م) مروراً بالحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945م) مرت منطقة الشرق الأوسط في عدة مشاريع من التقسيم وإعـادة هيكلة الخرائط السياسية عبر القوى الدولية التي افرغت هذه الجغرافيا من سيادة صناعة القرار السياسي، وهو ما أوجد تراكماً من الأزمات والتناحرات في بنية الفكر الصانع لقيادة الأمة .

نجمي عبدالمجيد

وما نشهده اليوم لم يكن بعيد المسافة عن سابق الأحداث في مجريات الشرق بل توسعت دوائر العنف إلى حد تدمير دول وقتل شعوبها وكأن الأقدار قد ساقت المصير نحو هذا الاتجاه.

لكن من يـدرك قـراءة لعبة الأمـم يعرف ان حالة الانهيار ليست إلا نتاجاً لعجز في افكار ومشاريع طرحت لم تصل في مستوى ادراكها لواقع الـشرق الـذي وكما نظر إليه ان يظل محصوراً عند حالات التصدع والتآكل الداخلي بفعل عجز الوعي السياسي عن طرح الرؤية القادرة على الخروج من واقع الأزمات.

اليوم تذهب المنطقة نحو حروب أهلية بل هي في قلب هذا التدمير الذاتي حتى وصل الحال في عدة دول عربية، الى الفشل في انقاذ العملة الوطنية من السقوط التام، وهي ان ذهبت في الاندحار لا تعني سوى الجوع والحرب الأهلية والخراب الكامل عند الشعب، والذي لن يرى في الحل غير السلاح والفوضى بعد ما تكون كل أساليب تفكيك المجتمع قد ضربت أمراضها في الأنفس والعقول، ليصبح فيه الواقع يعاني من الأمراض النفسية المدمرة الزارعة في كيان الفرد والجماعة حالات الحقد والكراهية والرغبة الجامحة في الانتقام.

من ايديولوجيات السيطرة التي ضربت بعنف في واقع الحال في الشرق الأوسط، صراع الأديان والمذاهب.

ولعل المذهبية الدينية هي العنصر الفاعل في رفع حالة السخط عند بداية تفكيك المجتمع العقائدي وهي في الراهن كقوة فاعلة تتوسع في حروب الشرق والتي تسعى لصنع الكيان ليس عبر مساحة الجغرافيا الطبيعية والتي سقطت من حسابات العمل السياسي، بل نقلت ادارتها إلى الجوانب الروحية القائمة على الاندفاع العاطفي غير المدرك لحجم التدمير، والفعل هنا يأتي عبر تسويق الحق الالهي والقدر المطلق في فرض الهيمنة على الطرف الآخر حتى لو كانت كمية الدماء والأرواح والأجساد التي تذهب ثمناً لكل هذا الجنون عالية، ونحن نرى في دول عربية مثل لبنان والعراق والسودان واليمن حالات من التشرذم غير المنطقي لوضع حد لهذا الانتحار الجماعي. ومن مهام الحروب الأهلية جعل الأرضية غير قابلة لبناء أي وفاق مع الأطـراف الاخـرى مما يعزز استمرارية المواجهات.

وكلما طالت فترات الأزمات والحروب الأهلية تصبح قضية إعـادة الثقة عند الكيانات المتحاربة غير جدية؛ لأن الرغبة في السيطرة تصبح القاعدة العامة في القتال ولا تقبل أي حوار أو مبرر ينقص من المساحة التي سيطرت عليها بقوة السلاح والدم، بل شهوة القهر دائماً ما تطلب المزيد من حرق الغير حتى يصبح الاستحواذ هو الزعامة التي تقود أهواء العقل والنفس.

حين تفقد الجغرافيا الواحدة يصبح من الصعب فرض أي مشروع سياسي يمسك بركائز الحل الشامل.

الجانب الجغرافي هنا ليس مجرد مساحة على الأرض؛ لأن فعل الصراع قد خلق الانقسام في عدة عوامل كان يظن بها قواسم مشتركة في مسار الأمة الواحدة.

فمن الكل تتجزأ المـسـارات وتـخـرج من الانضمام الشامل جزئيات ترفع لأكثر من صور لمعنى الهوية وليس أخطر من أن تصبح حالات ذاتية تعايشت في المجتمع ما يغايرها في السابق دون احداث تفجير نفسي لها كحق من حقوق الانتماء الشخصي إلى مطالب سياسية تعيد رسم مساحة لم تعد مقبولة في ما فرض في السابق، ونحن نرى اليوم مطالب لجماعات لم تعد ترى في نفسها إلا مشروع أمة وشعب والمساحة التي تقف عليها قيام وطن له كل الصفات والحقوق بما يعني أننا نسير نحو صنع الدويلة القطرية وذهاب الدولة الوطنية، وكل عوامل هذا التحرك يسير حسب مخطط القوى العظمى.

ان التغيير عبر الحروب هو فرض واقع القهر، لكن هنا نجد أنفسنا امـام حالة لا يمكن تجاهلها في رصد درجة الخراب السائد وهي ان الانتصارات المؤقتة لا تؤكد على السيطرة المطلقة لفترة طويلة من الوقت. وهذا الموقف يدل على ان مسألة الحسم ليست هي الهدف بل الدوران في نفس الدائرة المغلقة دون حل، بل استمرار سقوط مراكز قوى وصعود اخرى وفي هذا جعل المجتمع غير قادر على الامساك بطرف يوجد الحل الممكن.

لكن هل يكون كل هذا عبر اسباب جاءت من الخارج؟

بل هناك مسائل داخلية لعبت عبر عقود في ترسيخ و جعل نفسية الأمة تتصارع على الانتماءات الذاتية.

لقد نظر بعض ممن درسوا حالات الشرق بأنه اعجز الأماكن عن انتاج مشروعه السياسي، بل يجب عليه العودة تحت نفوذ الاستعمار الغربي وهـي قضية من حيث الخطورة في مسألة طرحها تبرهن على ضعف العقل العربي عن بناء مقومات المجتمع والأمة .

بل التجارب الماضية وما تلاها لا يدل على صياغة مخرج من هذا العجز .

فهذا المجتمع والعقل السياسي المتحكم فيه اما هو قوة قهر ضد الأمة أو الذهاب نحو الحرب الأهلية التي تدمر ما بقي في الواقع من حاجات ليس من السهل بعدها إعادة بنائها .

في الوقت الراهن، نرى ان المنطقة ذاهبة نحو تدمير شامل بل محو لدول وشعوب وإعادة صياغتها بما لها من ذاتيات منفصلة عن وحدة الكل، حتى اللهجة المحلية في المناطق المتعددة هناك من يعمل على تحويلها لساناً قومياً يطالب بحق تقرير المصير.

هنا نحن أمام حدود جديدة ترسم في العقل والنفس عبر المفردة المحلية، وقس على هذا كل ما يرتبط بالذات من اشكال الحياة التي خرجت من الخصوصية الجماعية لتصبح مطالب شعب، وما يقابله عند الأطراف الاخرى من خصائص وقد ضربت فيها كل مسببات الانقسام. تزحف أهـداف وأغـراض المواجهة لتفجر بعدها نيران حروب الدوائر المغلقة التي تملك التصعيد ولا تقدر على الاحتكام للعقل.

ولعل مخطط سقوط ركائز في الـشرق بما حملت من نواقص وقصور عبر حقب من قيام المشروع الوطني يدل على خلل في صنع الدولة كمؤسسة مدنية، بل ذهب بها القادة نحو المؤسسات الأمنية والعسكرية واختصار العمل السياسي بعد ضرب كل ركائز المجتمع المدني وجعله في يد الطائفة أو القبيلة أو المنطقة وتجريد الشعب من ممارسة الديمقراطية حتى اصبح المواطن يرى في الدولة قوة قهر طبقي وهي المالكة لكل شيء وجعل المواطن إما في دائرة الاتهام أو في زاوية القناعة .

عبر حقب هذا الاذلال السياسي وبفعل ارتفاع الضغط فقد المواطن روح الانتماء للوطن، حيث يدرك انها أكذوبة الهدف منها سيطرة تلك القوى السياسية على الوضع، وعاد ليبحث عن الوطن المفقود في ظل المذهب والطائفة والعشيرة وغيرها مما يعيد له العزة وحق الدفاع عن النفس والحقوق.

فلا غرابة حين اصبح المواطن العربي يفضل القبيلة عـلى الـدولـة، والمـذهـب عـلى الفكر السياسي، والطائفة على الحزب.

لذلك لم تعد تجدي مع الفرد في واقع القمع والحرمان محاولات العودة إلى خطاب الدولة السياسي الذي اصبح مفرغاً من أي محتوى يقنع الفرد أو الجماعة، هنا يكون جسر الاتصال بين الأمة والدولة قد كسر وغابت الرغبة في العودة لطاعة النظام، ولن يكون البديل سوى التمرد. هنا تصبح الدولة في نقطة الفشل والعجز لأن البنية التحتية في المجتمع تكون قد دمرت من داخلها وليس من السهل الرجوع بها إلى مربع التماسك.

حيث عمت الفوضى في المنطقة كان السلاح الأخطر فيها هو الدين وبما تراكم عبر قرون من تناحرات مذهبية وطائفية وفرق سعت لصنع أوطان غير مدركة نحو أي الحدود تذهب بها المواجهات، فهي ان تقوت اندفعت إلى الأمام، وان انكسر مشروعها عادت إلى قوقعة الانفراد والذاتية لتعيد حساباتها لهجوم قادم.

ومن هنا نجد دور العقل السياسي الغربي في معرفة خطورة التناحرات المذهبية في تاريخ الاسلام، وعبر دراسة هذا المسرد من الأحداث والأزمنة والتنقيب عن أسس الأزمات ومن كانوا رموزها والكشف عما حملت به الأسفار من وقائع كانت وليدة ظروفها لتعاد اليوم كإسقاط على نفسية الأمة لتعود دورة التاريخ من هذا الجانب المظلم، فتم تفجير بلد مثل العراق بنار المذهبية، وذهب لبنان في محرقة الطائفية، وتصاعدت في ليبيا نزعة المناطقية وغيرها من بلدان كان ينظر لها من منطلق الفكر القومي العربي فـاذا هي معقل الارهـاب والحروب وتصدير الموت.

لأن حروب الأديان والمذاهب لا تسقط بتقادم الأزمان بل تظل جمراً مشتعلاً تحت الرماد، أدركت القوى الدولية ان دراسة العقيدة من امضى الوسائل في إعادة رسم خارطة الشرق الأوسط الجديد.

لقد خطط ومنذ عقود في جعل منطقة الشرق الأوسط في حالة صراع خارج الاستقرار، وما هذه الحروب في غزة وصولاً إلى مساحة جغرافية أوسع سوف تصل إلى باب المندب وربما ميناء عدن.

ان اسقاط الخرائط السابقة من الحسابات التي ظلت لفترات زمنية في اطـار الحتمية الدائمة سوف يربك المشهد إلى حد بعيد، وما هذا الاهتزاز في الأرضية لدول المنطقة إلا دليل على ضعف الوضع السياسي، بل وضع مطلب التغيير في موقع الفرض الذي يحدد مصير الأمة.

لقد عملت الحروب والصراعات في المنطقة على صنع بنية هشة في قيادة العمل السياسي، وهذا بدوره ترك ركاما من المفارقات في وعي الذات ووعي التاريخ حيث تكونت نظرة لمفهوم الدولة كقوة لا يصل إليها الطالب لها إلا عبر دفع من تسيد على الحكم إلى محرقة الحرب، ولعل لعبة الانقلابات واحكام الاعدام والسجون في تاريخ السلطة العربية فتحت طرقاً لجعل التآمر جزءاً من اساليب الحكم وهذا ما أوصل الحالة إلى هذا الضعف العام في إعادة انتاج الدولة بعد حقب من الاستهلاك في دوامة التناحر.

ان خارطة تقسيم المنطقة قد اصبحت من حقائق الأمـر الواقع، ولعل حـالات التشرذم التي تعاني منها الأوطـان العربية ودخولها في مأزق مع الحضارة والتاريخ يعد العنصر الهام في تصاعد هذه الانفجارات العاصفة في الشرق، وتظل المسائل والقضايا في هذه الزاوية من التراجع إلى أدنى درجات العجز في الفكر والعمل، وكلما طالت حدة الفوضى في المنطقة لن تبقى الأمور في هذا الوضع.

لقد حدد الشرق الأوسط الجديد دولاً قائمة على الانتماء المذهبي والطائفي، وخلق من الثقافات والعقائد المحلية قـوى سياسية تفرض كيانات قادرة على محو مفهوم الوطنية الـذي ظل من شـعـارات الـدولـة البوليسية الأمنية لعقود، وهنا علينا ان نعرف ان الامتداد الجغرافي يقوم القدرة الدافعة في العقيدة نحو تحريك النفسيات لقيادة المزيد من الصراعات.

فلا نغفل في هذا الأمر ان المذهبية ـ الدينية حين تصبح آلية سياسية لا تقبل في الآخر، حين يحكم منطق التكفير الموقف السياسي فلا فصل أو حد إلا بقوة السلاح، لأن المنطلق في هذا الأمر هو الحق الإلهي في قتل الآخر ومن هنا تصبح قضية تحديد حدود الجغرافيا غير مقبولة طالما الحرب مقدسة وتحمل صفة فاصلة في مسألة لجم الطموح الديني ـ المذهبي في دفع قوة النار إلى ابعد المسافات حتى يصل إلى آخر الهدف.

هنا علينا ان ندرك أن حروباً مثل هذه لا تُعرف لها حدود واحدة أو شكل من خطوط على الخرائط، بل هي كلما ذهبت في قوة اشتعالها المحرقة رغبت في فرض المزيد من احتراق المواقف، فهي لا تقف إلا على أرضية من رماد ودم. وهذه الحالة هي انعكاس لجوهر نفسيتها، التي تسكنها نيران الحقد والرغبة في الانتقام، وما دمار المجتمع بالنسبة لها، إلا نصر لعقيدة العدم التي تظنها من شروط الدين.

وضع المذهبية كقوة تدميرية لخلق مجتمعات منقسمة من الداخل

●●

مهام الحروب الأهلية جعل الأرضية غير قابلة لبناء أي وفاق مع الأطراف الأخرى مما يعزز استمرارية المواجهات

●●

حين تفقد الجغرافيا الواحدة يصبح من الصعب فرض أي مشروع سياسي يمسك بركائز الحل الشامل

●●

الانتصارات المؤقتة لا تؤكد على السيطرة المطلقة لفترة طويلة من الوقت

●●

حروب الأديان والمذاهب لا تسقط بتقادم الأزمان